المقوِّم الثالث

الفطرة

الفطرة

لقد أودعَ اللهُ في مداركِ الأفكارِ ، وفي مشاعرِ الوجدانِ ما تُدرَكُ به فضائلُ الأخلاقِ ورذائلُها ، وهذا ما يجعلُ الناسَ يشعرون بقبحِ العملِ القبيحِ ، وينفرون منه ، ويشعرون بحسنِ العملِ الحَسَنِ ، ويرتاحون إليه ، وبذلك يمدحون فاعلَ الخيرِ ، ويذمّون فاعلَ الشرِّ .

لقد أرشدتِ النصوصُ الإسلاميّةُ إلى وجودِ الحسِّ الأخلاقيِّ في الضمائرِ الإنسانيّةِ ، وأحالتِ المسلمَ المؤمنَ إلى استفتاءِ قلبه في الحكمِ على أيّ سلوكٍ قد تميلُ النفسُ إليه ، قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس : ٧ـ١٠] .

فالنفسُ الإنسانيّةُ منذ تكوينها وتسويَتِها أُلهِمَتْ في فطرتِها إدراكَ طريقِ فجورِها وطريقِ تقواها ، وهذا هو الحسُّ الفطريُّ الذي تدركُ النفسُ به الخيرَ من الشرِّ .

فالإنسانُ لديه بصيرةٌ يستطيعُ أنْ يحاسبَ بها نفسَه محاسبةً أخلاقيةً على أعمالِه ومقاصدِه ، ولو حاول في الجدلِ اللسانيِّ الدفاعَ

عن نفسه ، وإلقاءَ معاذيره على غيره ، قال تعالى : ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٤ـ١٥] .

روى الإمامُ مسلمٌ في صحيحه عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ قَالَ : « سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ الْبِرِّ وَالإِثْمِ فَقَالَ : الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ »[١] .

هذا الحديثُ يدلّ على أنّ في النفسِ الإنسانيّةِ حسًّا خُلقيًّا بالإثمِ ، لذلك يكرهُ فاعلُ الإثمِ أنْ يطّلعَ عليه الناسُ ، لأنه يعلمُ أنهم يشعرون بمثلِ ما يشعرُ ، وذلك بحسٍّ أخلاقيٍّ موجودٍ في أعماقِ النفسِ ، هذا الحسُّ هو ما سمّاه الباحثون الأخلاقيُّون الضميرَ .

عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الأَسَدِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لِوَابِصَةَ : « جِئْتَ تَسْأَلُ عَنْ الْبِرِّ وَالإِثْمِ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ فَضَرَبَ بِهَا صَدْرَهُ ، وَقَالَ : اسْتَفْتِ نَفْسَكَ ، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ ، ثَلاَثاً ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ »[٢] .

في هذا الحديثِ الشريفِ تبيانٌ واضحٌ للحسِّ الأخلاقيِّ ، و

---

(١) مسلم (٢٥٥٣) ، الترمذي (٢٣٨٩) ، الدارمي (٢٧٨٩) .

(٢) مسند أحمد وصحيح الترغيب كتاب البيوع .

الضميرِ الأخلاقيّ ، هذا الضميرُ إذا كان نقيًّا صافياً سليماً من العِللِ والأمراضِ فإنه يستطيعُ أنْ يحسَّ بفضائلِ الأخلاقِ ، ومحاسنِ السلوكِ ، وأنْ يحسَّ برذائلِ الأخلاقِ ، ومساوئِ السلوكِ ، وأن يميّزَ بين الصِّنْفَيْنِ .

إنّ البرَّ المفسَّرَ في كلامِ رسولِ اللهِ ﷺ بأنه حُسْنُ الخُلُقِ يفعلُه الإنسانُ السويُّ ، وهو مطمئنُّ القلبِ والنفسِ ، أمّا الإثمُ فإنّ الإنسانَ السويَّ لا يقدِمُ عليه إلا وفي نفسِه قَلَقٌ منه ، وفي صدرِه تردُّدٌ واضطرابٌ ، فالطمأنينةُ علامةُ البرِّ ، والتردّدُ والاضطرابُ وخوفُ اطّلاعِ الناسِ علامةُ الإثمِ ، ولكن قد يختلطُ الأمرُ في بعضِ الأعمالِ على العقلِ والضميرِ ، ويلتبسُ عليهما وجهُ الحقِّ ، فيكونان حينئذٍ في حاجةٍ إلى هدايةٍ وتبصيرٍ ، وقد تطغى الأهواءُ والشهواتُ ، أو العاداتُ والتقاليدُ ، أو يؤثّرُ فيهما الموجِّهون المضلِّلون ، أو الشياطينُ المُوَسْوِسُون من الجنِّ والإنسِ ، وطريقةُ المسلمِ في هذه الحالةِ هي اتِّقاءُ الشبهاتِ ، فإذا كان اتّقاءُ الشبهاتِ في جانبِ الترْكِ ، لأنّ الأمرَ مشتبهٌ بين الحلالِ والحرامِ كان الأفضلُ للمسلمِ أن يتركَ العملَ المشتبهَ فيه خشيةَ الوقوعِ في الحرامِ ، وإذا كان اتّقاءُ الشبهاتِ في جانبِ الفعلِ ، لأنّ الأمرَ مشتبهٌ بين الحلالِ والواجبِ كان الأفضلُ للمسلمِ أن يأتيَ بالعملِ المشتبهِ فيه خشيةَ الوقوعِ في تركِ الواجبِ .

والدليلُ على هذه الطريقةِ التي ينبغي للمسلمِ أنْ يتّبعَها ما رواه

البخاري ومسلم من عدّة طرقٍ عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ يَقُولُ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ : « الْحَلاَلُ بَيِّنٌ ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى ، أَلاَ إِنَّ حِمَى اللهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ »[1] .

هذا الحديثُ الشريفُ الصحيحُ من أحاديثِ الأصولِ الجوامعِ ، وفيه كليّاتٌ عظيمةٌ تتّصلُ بأمّهاتِ السلوكِ ، وفيه تقسيمٌ ثلاثيٌّ للأحكامِ الشرعيّةِ .

فالقسمُ الأولُ : هو الحلالُ الصرفُ البيِّنُ الواضحُ الذي لم تخالطْه شبهةٌ ، ولا يختلف فيه الناسُ ، ولا تتأثّمُ منه النفوسُ ، ولا تتحرّج .

والقسمُ الثاني : الحرامُ الصرفُ البيّنُ الواضحُ الذي لا يختلفُ فيه عقلاءُ الناسِ وأصحابُ البصيرةِ ، ولا يفعله فاعلٌ إلا وفي نفسِه حرجٌ وشعورٌ بالإثمِ ، وخوفٌ من سوءِ المصيرِ .

والقسم الثالث : المشتبهاتُ ، وسمِّيتْ بذلك لأنّ لها شَبَهاً بالحلال يزيد وينقص ، وشَبَهاً بالحرام يزيدُ وينقصُ ، وهي تلتبسُ

---

(١) البخاري (٥٢) ، ومسلم (١٥٩٩) .

وتختلطُ على كثيرٍ من الناس ، ولكن لا على كلّ الناسِ ، فالعلماء المحقِّقون للشبهاتِ كاشفون ، وقد جاءت كلمةُ الشبهاتِ جمعاً لأنها متفاوتةٌ في قُربِها من الحلالِ ، وقربِها من الحرام ، والأسلمُ للمسلمِ الصادقِ في استسلامِه إلى ربّه أنْ يدعَ هذه الشبهاتِ استبراءً لدينِه عند اللهِ ، وعرضِه عند الناس ، وقد قال رسول الله ﷺ : « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لاَ يَرِيبُكَ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ »(١) .

وعَنْ عَطِيَّةَ السَّعْدِيِّ ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « لاَ يَبْلُغُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنْ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدَعَ مَا لاَ بَأْسَ بِهِ حَذَراً لِمَا بِهِ الْبَأْسُ »(٢) .

لما كان الإنسانُ مزوَّداً في أصلِ كيانه بعقلٍ إذَا أعملَه متفكراً في خَلقِ السماواتِ والأرضِ أوصله إلى الإيمانِ باللهِ خالقاً ، ومربّياً ، ومسيّراً ، موجوداً وواحداً ، وكاملاً .

ولما كان الإنسانُ مزوّداً في أصلِ فطرته بحسٍّ أخلاقيٍّ كافٍ لإدراك الخيرِ والشرّ ، والحقِّ والباطلِ دونَ معلِّمٍ ، ولا موجِّهٍ ، ولا كتابٍ منيرٍ فإنه مزوّدٌ بعقلٍ يدلّه على اللهِ ، ومزوّدٌ بفطرةٍ تدلّه على

---

(١) رواه الترمذي (٢٥ ١٨) ، والنسائي (٥٢٢٠) ، وأحمد (١٢٥٧٢) عن الحسن بن علي .

(٢) الترمذي (٢٤٥١) ، وقال : حديث حسن ، ابن ماجه (٤٢١٥) .

خطئه ، ولأنه مزوّدٌ في أصلِ كيانِه بعقلٍ ، وفي أصلِ فطرته بضميرٍ كَافِيَيْنِ لمعرفةِ عظمةِ اللهِ ، ولمعرفةِ حالِ نفسه ، يُقال له يومَ القيامةِ عندما يُسَلَّمُ كتابَ عملِه في الحياة الدنيا : ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٤] ، أي : إنك ستحاسِبُ نفسَك لأنك تملكُ مِيزَانَيْنِ ، ميزانَ العقلِ ، وميزانَ الفطرةِ .

وفضلاً عن الحسِّ الأخلاقيّ الذي أودعه اللهُ في الإنسانِ إدراكاً وشعوراً ، فهنالك قواعدُ هاديةٌ للبصيرةِ الأخلاقيةِ ، نبّه إليها النبيُّ ﷺ ، من هذه القواعد أن تعامل الناس كما تحب منهم أن يعاملوك .

وقد جاء هذا المعنى في حديثٍ طويلٍ رواه الإمامُ مسلمٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنْ النَّارِ ، وَيَدْخُلَ الْجَنَّةَ فَلْتُدْرِكْهُ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَيَأْتِي إِلَى النَّاسِ مَا يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ »[1] .

فكلما اشتبهَ على الإنسانِ أمرُ السلوكِ فعليه أنْ يضعَ نفسَه مكانَ الطرفِ الآخرِ ، ويفترض أنّ الأمرَ كان معكوساً ، فالأمرُ الذي يستحسنه لنفسِه من الآخرين ممّا لا معصيةَ فيه هو الأمرُ الذي ينبغي أن يفعلَه معهم ، لذلك على المؤمنِ أنْ يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه ، وأن يكرهَ له ما يكرهُ لنفسه ، فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ

(١) مسلم (١٨٤٤) ، أحمد (٦٧٩٣) و(٦٨٠٧) .

قَالَ : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »[١] .

ومن هنا يندفعُ المسلمُ إلى أن يكونَ صادقاً مع أخيه ، لأنه يحبّ أن يصدّقَه الناسُ إذا حدّثوه ، ويكرهُ أن يكذّبوه ، ويندفعُ المؤمن إلى أن يكونَ أميناً على مالِ أخيه وعرضِه وشرفِه ، لأنه يحبّ أن يعاملَه الناسُ بأمانةٍ على مالِه وعرضِه وشرفِه ، ويكرهُ أن يخونوه في شيءٍ من ذلك ، ويندفعُ المؤمنُ إلى مساعدةِ أخيه ومعاونتِه ، في مالٍ أو علمٍ أو جاهٍ أو خدمةٍ أو نصيحةٍ أو دعوةٍ صالحةٍ أو شفاعةٍ حسنةٍ ، لأنه يحبّ لنفسِه مثلَ ذلك من إخوانه ، ويندفعُ المؤمنُ إلى دعوةِ أخيه إلى الإيمانِ الصادقِ والعمل الصالح ، لأنه أحَبّ هذا لنفسِه ، وهكذا تجدُ المسلمَ مدفوعاً إلى الصبرِ والعفوِ والصفحِ والمسامحةِ يحاولُ بأقصى جهدِه سترَ العيوبِ ، وعدمَ نشرِها بين الناسِ ، بل يبادرُ إلى نصحِهم سرًّا ما وجد إلى ذلك سبيلاً ، إنه يفعل ذلك لأنه يحبّ أن يُعَامَلَ هكذا .

فما الهدفُ من التزامِ مكارمِ الأخلاقِ التي ترتاحُ إليها الفطرةُ ، والتي أمرَ بها الإسلامُ ، أو رغّب بفعلِها ؟

وما الهدفُ من اجتنابِ نقائصِ الأخلاقِ ، والتي تنكرُها الفطرةُ ، والتي نهى عنها الإسلامُ ، أو رغب في تركِها ؟

---

(١) البخاري (١٣) ، مسلم (٤٥) .

الهدفُ من هذا وذاك هو الفوزُ بسلامةِ القلبِ ، وسعادته ، ونيلُ الجزاءِ المعجَّلِ في الدنيا ، والنجاةُ من العقابِ المعجّلِ فيها ، ثم الفوزُ العظيمُ بالسعادةِ المطلقةِ الأبديةِ في الآخرةِ .

إنّ لذّاتِ الجسدِ وآلامَه أهونُ اللّذاتِ والآلامِ قيمةً في حياةِ الإنسانِ ، ولكنها تدخلُ ضمنَ الوحداتِ الجزئيةِ التي تمنحُ الإنسانَ قسطاً من السعادةِ ، لكنها كرذاذٍ سريعِ الجفافِ لا يملأُ ساحةَ النفسِ والقلبِ والفكرِ ، وتأتي فوقَ لذّاتِ الجسدِ لذّاتُ النفسِ الدنيويةُ وآلامُه ، وهي أعمقُ وأشملُ وأطولُ ، ثم تأتي فوق لذّاتِ النفسِ الدنيويةِ سعادةُ النفسِ الأخرويةُ ، وهي تتغلغلُ إلى أعمقِ أعماقِ الإنسانِ ، وتتّسعُ حتى تشملَ كلَّ حياته ، وكلّ نشاطاته ، وكلّ حركاتِه وسكناتِه ، وهي أبديّةٌ لا تزولُ ، لها بدايةٌ مع بدايةِ الإيمانِ ، وليس لها نهايةٌ ، وهي متناميةٌ دائماً .

قد تطغى لذّةُ النفسِ على ألمِ الجسدِ ، فلا يشعرُ الإنسانُ بألمِ الجسدِ ، وقد تطغى سعادةُ النفسِ الأخرويةُ على ألمِ النفسِ الدنيويّ ، فلا يشعرُ الإنسانُ بهذا الألمِ ، وقد تطغى آلامُ النفسِ على لذّاتِ الجسدِ ، فلا تكونُ لهذه اللّذاتِ أيُّ قيمةٍ .

مجملُ القولِ : إنّ الإنسانَ إذا لزمَ مكارمَ الأخلاقِ التي ترتاحُ إليها الفطرةُ ، والتي يطمئنّ إليها القلبُ يحقّقُ الغايةَ من وجودِه ، ومن سلامةِ وجوده ، ومن كمالِ وجوده ، ومن استمرارِ وجوده ،

ذلك لأن في القلبِ شعثاً لا يلُمُّه إلا الإقبالُ على اللهِ ، وفي القلبِ وحشةٌ لا يُزيلُها إلا الأنسُ بالله ، وفيه حزنٌ لا يُذهِبه إلا السرورُ بمعرفةِ الله ، وفيه قلقٌ لا يسكِنُه إلا الاجتماعُ عليه ، والفرارُ إليه ، وفي القلبِ نيرانُ حسراتٍ لا يطفئُها إلا الرضى بأمرِه ونهيِه ، وقضائِه وقدرِه ، والصبرُ على ذلك إلى يومِ لقائه ، وفي القلبِ فاقةٌ لا يسدُّها إلا محبّتُه ، والإنابةُ إليه ، ودوامُ ذِكْرِه ، والإخلاصُ له .

ومجملُ مجملِ القولِ : إنّ الإيمانَ أساسُ الفضائلِ ، ولجامُ الرذائلِ ، وقوامُ الضمائرِ ، وقد بين النبيُّ ﷺ أنّ أحسنَ الناسِ إسلاماً أحسنُهم خُلقاً ، وأنّ أكملَهم إيماناً أحسنُهم خُلقاً ، وأنّ مِن أحبِّ عبادِ اللهِ إلى اللهِ أحسَنَهم خُلقاً ، وأنّ خيرَ ما أعطي الإنسانُ خلقٌ حسنٌ ، وأنه ما من شيءٍ أثقلُ في ميزانِ المؤمنِ يومَ القيامةِ من خُلقٍ حسنٍ ، وأنّ المؤمنَ يدركُ بحسنِ خُلقه درجةَ الصائمِ القائمِ ، بل إنّ العبدَ ليبلغُ بحسنُ خُلقه عظيمَ درجاتِ الجنةِ ، والخُلقُ الحسنُ يذيبُ الخطايا كما يذيبُ الحرُّ الجليدَ ، وسوء الخلق يفسدُ العملَ كما يفسدُ الخلّ العسلَ .

كعبُ بن مالك صحابي جليل ، تخلّفَ عن غزوةِ تبوكَ دونَ عذرٍ ، فعاش مع نفسه محنة قاسية انتهت بمنحة إلهية ، وهذه القصةُ متوافقةٌ مع موضوعِ الفطرةِ توافقاً دقيقاً .

يقول كعب في قصته هذه بعد أن رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك : « فَجِئْتُهُ ، فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ، ثُمَّ قَالَ : تَعَالَ ،

فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ لِي : مَا خَلَّفَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟ فَقُلْتُ : بَلَى ، إِنِّي وَاللهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلاً ، وَلَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللهِ لاَ ، وَاللهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ ، وَاللهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ ، فَقُمْتُ » .

ويقول كعب بعد خمسين ليلة من محنته تلك وقد أنزل الله قرآناً يتوب فيه علة الثلاثة الذي خلفوا: « فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لاَ أُحَدِّثَ إِلاَّ صِدْقاً مَا بَقِيتُ ، فَوَاللهِ مَا أَعْلَمُ أَحَداً مِنْ الْمُسْلِمِينَ أَبْلاَهُ اللهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاَنِي ، مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِباً ، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللهُ فِيمَا بَقِيتُ »[1] .

أذكِّركم بقولِ النبي ﷺ ، عَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ

(١) القصة بتمامها في البخاري (٣٧٣٥) .

الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقاً ، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً »[1] .

* * *

(١) رواه البخاري (٥٧٤٣) ، مسلم (٢٦٠٧) ، أبو داود (٤٩٨٩) .

بَيْنَ الفطرةِ والتكليفِ

هذا الموضوعُ تَحْكُمُه الآيةُ الكريمةُ : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ [الروم : ٣٠] .

والإقامةُ أعلى درجة من النشاطِ ، وحنيفاً أي : مائلاً ، وهذا يذكّرنا بتعريفِ العبادةِ ، إنها طاعةٌ طوعيةٌ ، ممزوجةٌ بمحبةٍ قلبيةٍ ، أساسها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية . فمن أطاعَ الله ، ولم يحبّه لم يعبدْه ، ومن أحبّه ، ولم يطعْه لم يعبدْه ،

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ .

في هذه الآيةِ ملمحٌ رائعٌ ، أنْ تقيمَ وجهَك للدينِ حنيفاً هو الأصلُ نفسُه الذي فُطِرَتْ عليه النفسُ البشريةُ ، فالإنسانُ مفطورٌ على حبّ العدلِ ، وقد أُمِرَ بالعدلِ ، مفطورٌ على حبّ الرحمةِ ، وقد أُمِرَ أنْ يرحمَ مَن في الأرضِ ، فكلُّ أوامرِ اللهِ عز وجل ، وكلُّ النواهي التي نُهِينَا عنها متطابقةٌ تطابقاً تامًّا مع فطرةِ الإنسانِ .

فاللهُ عز وجل يقولُ : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ ﴾ ، أي : إنّ الإنسانَ مجبولٌ ، وبالمصطلحِ الحديثِ مبرمجٌ ومولّفٌ على حبّ الخيرِ ، إذاً النفسُ البشريةُ التي

فَطَرَها اللهُ عز وجل متطابقةٌ تطابقاً تامًّا مع منهجِ اللهِ ، لذلك شيءٌ طبيعيٌّ جداً أنّ الإنسانَ لمجرّدِ أنْ يستقيمَ على أمرِ اللهِ ، ويصطلحَ مع الله ، لمجرّدِ أنْ يتوبَ إلى اللهِ يشعرُ وكأنّ جبالاً أُزيحتْ عن كاهِله ، لأنه وجدَ نفسَه ، ووجدَ مبادئَ فطرتِه ، لأنه اصطلحَ مع نفسِه ، ولأن هذه النفسَ أصبحتْ نغماً منسجماً مع الكونِ ، بعد أن كانت نغماً شاذًّا .

إنّ الراحةَ النفسيّةَ ، والسكينةَ ، والسعادةَ هي النتيجةُ الحتميّةُ لمَن أطاعَ ربَّه ، فانسجمَ مع فطِرتِه .

إنّ القلقَ والتشاؤمَ والسوداويةَ والكآبةَ والضيقَ هي عقابٌ سريعٌ تعاقِبُ النفسُ به ذاتَها ، فأكثرُ الأمراضِ النفسيّةِ مبعثُها مخالفةُ الفطرةِ ، ويكادُ مرضُ الكآبةِ يكون أوسعَ الأمراضِ انتشاراً في العالَمِ ، لأنّ الإنسانَ عن علمٍ أو عن جهلٍ يخالفُ مبادئَ فطرتِه ، فتعذّبه نفسُه ، ولولا أنّ الفطرةَ تحبّ الكمالَ ، وتتطلّعُ إليه لمَا عَذّبَ أحدٌ نفسَه إذا خالفَ الكمالَ ، وما من إنسانٍ كائناً مَن كان يخرجُ عن منهجِ اللهِ عز وجل إلا وتعذّبه نفسُه ، ويظهرُ هذا العذابُ بطبعٍ حادٍّ ، وبردودِ فعْلٍ قاسيةٍ ، وبكلماتٍ لا تُحتَمَل ، وبضجرٍ وضيقٍ ، إنه يعاني من اضطرابٍ داخليٍّ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ،

كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ ، هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ ؟ »[١] .

ويقول عليه الصلاةُ والسلامُ في الحديثِ الصحيح : « إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُم . وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِم »[٢] .

فالشيطانُ أحياناً يطمسُ الفطرةَ ، فالفطرةُ السليمةُ هي المقياسُ ، لكنّ الفطرةَ المطموسةَ بالشهواتِ لا تصلح مقياساً لتقييمِ أعمالِ الإنسانِ .

الفطرةُ والصبغةُ :

هناك نقطة دقيقة جداً ، ثمَّةَ فرقٌ كبيرٌ بين أن تكون خيّراً وأن تحبّ الخيرَ ، محبّةُ الخيرِ شيءٌ ، وأن تكونَ خيّراً شيءٌ آخرُ ، محبّةُ الخيرِ فطرةٌ ، أمّا أنْ تكونَ خيّراً فهذه صبغةٌ ، ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [البقرة : ١٣٨] .

فأيُّ إنسانٍ كائناً مَن كان يحبّ العدلَ ، وقد يكون ظالماً ، يحبّ الرحمة ، وقد يكونُ قاسياً ، يحبّ العفّةَ ، وقد يكونُ متورّطاً ، لكن حينما يتّصلُ بالله عز وجل ، ويشتقُّ من كمالِه عز وجل تَحُلُّ الصبغةُ محلَّ الفطرةِ ، كان يحبّ العدلَ فأصبحَ عادلاً ، كان يحبّ الرحمةَ فأصبح رحيماً .

---

(١) البخاري (١٢٩٢) مسلم (٢٦٥٨) ، أحمد (٧١٨١) .
(٢) مسلم (٢٨٦٥) ، النسائي (٨٠٧٠) .

إذاً ينبغي أن نفرّقَ بين الفطرةِ والصبغةِ ، الصبغةُ متعلّقةٌ بالمؤمنين الذين عرفوا اللهَ عز وجل ، وعرفوا منهجَه ، وأطاعوه ، فتولّدَ في نفوسِهم أنّ اللهَ يحبُّهم ، فأقبلوا عليه ، واشتقُّوا من كمالِه ، حيث إنّ مكارمَ الأخلاقِ مخزونةٌ عند اللهِ تعالى ، فإذا أحبَّ اللهُ عبداً منحَه خُلقاً حسناً ، والأصلُ أنّ النفوسَ جُبِلَتْ على الفطرةِ ، وفُطِرَتْ على الكمالِ ، أمّا أنْ تكونَ كاملةً ، أو غيرَ كاملةٍ فهذا موضوعٌ آخرُ .

الفطرةُ والطبعُ :

هناك نقطةٌ دقيقةٌ جداً يجب ألاّ تغيبَ عن أذهاننا ، وهي أنّ الفطرةَ شيءٌ ، والطبعَ شيءٌ آخرُ ، الطبعُ مرتبطٌ بالجسمِ ، فهذا الجسمُ يُريحُه أنْ يبقى نائماً إلى ما بعد طلوعِ الشمسِ ، لكنّ التكليفَ يأمرُه أنْ يستيقظَ ، وفي هذا مشقّةٌ على الجسمِ ، فإذا استيقظَ ، وصلّى صلاةَ الفجرِ في وقتِها ارتاحتْ نفسُه ، فكأنّ الأمرَ الإلهيَّ يريحُ النفسَ ، وقد يُتعِبُ الجسمَ ، هذا التناقضُ بين خصائصِ طبعِ الإنسانِ والتكليفِ هو ثمنُ الجنّةِ ، ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات : ٤٠-٤١] .

فالفطرةُ متطابقةٌ تطابقاً تاماً مع خصائصِ هذا المنهجِ ، لذلك حينما تستقيمُ على أمرِ اللهِ تشعرُ براحةٍ ، وقد قالوا : « في الدنيا جنّةٌ مَن لم يدخلها لم يدخلْ جنّةَ الآخرة » ، وقيل : « المؤمنُ عنده شعورٌ بالأمنِ لو وُزِّع على أهلِ بَلَدٍ لكفاهم » ، هذا أمنُ الإيمانِ ،

وهذا ينقلنا إلى قولِ النبيّ ﷺ : « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِناً فِي سِرْبِهِ»[١] .

إنه آمِنٌ لا لأنه غنيٌّ ، ولا لأنه قويٌّ ، إنه آمِنٌ لأنه واثقٌ من وعدِ الله له بالحسنى ، ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص : ٦١] .

يشعر أنّ اللهَ يحبّه ، وأنه على منهجِ الله سائرٌ ، وأنه موعودٌ بالجنةِ ، وأنه لم يؤذِ مخلوقاً كائناً مَن كان ، وأنه بنَى حياتَه على العطاءِ ، وأما الطرفُ الآخرُ فقد بنَى حياتَه على الأخذِ ، فالمؤمنُ يسعِدُه أن يعطيَ مِن كلِّ ما أعطاه اللهُ ، مِن وقتِه ، من مالِه ، مِن جهدِه ، من علمِه ، من خبرتِه ، يسعدُ بالعطاءِ ، لأن الأنبياءَ جاؤوا إلى الدنيا فأعطوا كل شيءٍ ، ولم يأخذوا شيئاً ، والطغاةُ أَخذوا كلَّ شيءٍ ، ولم يعطوا شيئاً ، وليس في الأرض إلا رجلان ؛ رجلٌ عرفَ اللهَ ، وعرفَ منهجَه ، فانضبط بمنهجِه ، وأحسنَ إلى خَلْقِهِ ، فسعدَ في الدنيا والآخرةِ ، ورجلٌ غفلَ عن اللهِ ، وبالتالي تفلَّتَ من منهجِه ، ومن لوازمِ التفلّتِ من المنهجِ الإساءةُ إلى الخَلْقِ ، فشقيَ في الدنيا والآخرةِ .

إذاً الطبعُ متعلِّقٌ بالجسمِ بعضَ التعلُّقِ، أما الفطرةُ فمتعلِّقةٌ بالنفسِ.

الفطرةُ تتوافقُ مع منهجِ اللهِ ، والطبعُ قد يتناقضُ مع منهجِ اللهِ ،

---

(١) الترمذي (٢٣٤٦) ، ابن ماجه (٤١٤١) عن عبد الله بن محصن الخطمي .

وحينما يصطلحُ الإنسانُ مع اللهِ عز وجل يريحُ نفسَه راحةً عاليةً .

السيّارةُ السياحيّةُ مصنوعةٌ للسيرِ على طريقٍ معبَّدةٍ ، فحينما تسيرُ بها على الطريقِ المعبَّدةَ تأخذُ كلَّ ميزاتِها ، صوتٌ ناعمٌ ، سرعةٌ جيّدةٌ ، كلُّ الأمورِ التي صُنِعَتْ لها تقطفُ ثمارَها ، وهي على الطريقِ المعبّدةَ ، أما لو سِرْتَ بها في طريقٍ وَعْرةٍ فيه أكماتٌ وصخورٌ وحُفَرٌ فإنها تتكسرُ ، ولا تنطلقُ ، وتنزعجُ منها ، وقد تصابُ بالعطبِ ، لأنها مصنوعةٌ للطريقِ المعبّدةِ ، فلا ترتاحُ بهذه المركبةِ ، ولا تنطلقُ بها ، ولا تشعرُ بميزاتِها إلا في الطريقِ المعبَّدَةِ ، أما المدرّعةُ مثلاً فمصنوعةٌ للطريقِ الوعرةِ .

حينما أتيقّنُ أنّني متوافقٌ مع منهجِ اللهِ ، وأصطلحُ مع اللهِ ، وأتوبُ إليه ، أشعرُ براحة ، وما مِن راحةٍ في بني البشرِ تفوقُ راحةَ التائبِ إلى اللهِ ، ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ۖ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

[الأنعام : ٨١ـ٨٢] .

لو قال الله عز وجل : أولئك الأمنُ لهم أي : ولغيرهم أيضاً ، ولكنه سبحانه قال : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ ﴾ وَحْدَهم ، فليس على وجهِ الأرضِ إنسانٌ آمنٌ حقيقةً إلا المؤمنُ ، أمّا الذي أشركَ باللهِ عز وجل فإنّ اللهَ يقذفُ في قلبِه الخوفَ .

* * *

من خصائصِ النفسِ الإنسانيّةِ

هذا الإنسانُ المخلوقُ المكرَّمُ ينطوي على نفسٍ هي ذاتُه ، هي المكلَّفةُ ، والمحاسَبَةُ ، وهي التي تؤمنُ أو تكفرُ ، هي التي تشكرُ وتصبرُ ، وتسمو وتنحطُّ ، وتخلدُ في جنةٍ يدوم نعيمُها ، أو في نارٍ لا ينفدُ عذابُها ، هذه النفسُ الإنسانيّةُ لا تموتُ ، ولكنها تذوقُ الموتُ ، وفرقٌ كبيرٌ بين أنْ تموتَ ، وأنْ تذوقَ الموتَ ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] .

هذه النفسُ البشريّةُ قد يكونُ خطُّها البيانيُّ صاعداً صعوداً حادًّا ، وعند الموتِ تسقطُ سقوطاً مريعاً إلى أسفلِ السافلين ، أمّا نفسُ المؤمنِ ففي حركةٍ صاعدةٍ صعوداً مستمرًّا ، وما الموتُ إلا نقطةٌ على هذا الخطِّ ، والصعودُ مستمرٌّ ، هذا الإنسانُ فيه جسدٌ ونفْسٌ ، والموتُ انفصالُ هذه النفسِ الخالدةِ عن الوعاءِ الماديِّ الذي هو الجسدُ .

وهناك عنصرٌ ثالثٌ ، هو الروحُ ، أي القوّةُ المحرِّكةُ ، بل إنّ الروحَ إذا انقطعت عن الإنسانِ أصبحَ جثّةً هامدةً ، أين رؤيةُ العينِ ؟ أين عملُ الكبدِ ؟ أين أجهزتُه ؟ تعطّلَ كلّه ، وأصبحَ جثّةً هامدةً ؟

لكنّ البحثَ في الروحِ عديمُ الجدوى ، لقوله سبحانه : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

[الإسراء : ٨٥] .

فالإنسانُ فيه نفسٌ هي ذاتُه ، وفيه جسمٌ هو وعاؤُه ، وفيه روحٌ هي قوّتُه المحرِّكةُ ، لو نظرنا إلى نفسِه لوجَدْنا أنّ لها خصائصَ وسماتٍ وقوانينَ ، والعالَمُ كلُّه اليومَ يهتمُّ بالجسمِ لا بالنفسِ ، يسعى لرفاهيةِ الجسمِ ، وقد غفلَ عن النفسِ ، وقد صدقَ أبو الفتح البستي حين قال :

يا خادِمَ الجسمِ كم تشقى بخدمتِه ... أتطلبُ الربحَ فيما فيه خسرانُ
أقبل على النفس فاستكمِلْ فضائلَها ... فأنت بالروحِ لا بالجسمِ إنسانُ

في الإنسانِ نفسٌ لا يملؤها إلا معرفةُ الله عز وجل ، لا تملؤُها إلا طاعتُه ، ولا يملؤها إلا أن تكونَ قريرةَ العينِ بربّها ، هذه الحاجةُ إلى الإيمانِ باللهِ وطاعته ، هذه حاجةٌ أصيلةٌ ، وقد وردت خصائصُ النفسِ الإنسانيةِ في بعضِ الآياتِ القرآنيةِ .

الخصيصةُ الأولى : الإنسانُ هلوعٌ :

اللهُ جل جلاله لحكمةٍ بالغةٍ خَلَقَ هذا الإنسانَ هلوعاً ، ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴾ [المعارج : ١٩ـ٢٢] .

فمن خصائصِ الإنسانِ أنه شديدُ الهلعِ إذا لاح له شبحُ مصيبةٍ! وهذا من نقاطِ الضعفِ التي هي في أصلِ خَلقهِ ، ولكنها لصالحِه ، أوضِّحُ هذا بمثلٍ :

لو أنّ شركةً صنَّعتْ جهازاً غالياً جداً بالغَ التعقيدِ لاضْطُرَّتْ إلى أنْ تضعَ قطعةً ضعيفةً جداً في طريقِ التيارِ اسمُها (الفيوز) ، هذه القطعةُ رخيصةٌ ، لكنها نقطةُ ضعفٍ مدروسةٌ في أصلِ هذا الجهازِ ، فإذا جاء التيارُ الكهربائيُّ عالي المستوى ذابتْ هذه القطعةُ ، وانقطع التيارُ ، فلم يتلف الجهازُ ، فنقاطُ الضعفِ التي هي في أصلِ خَلقْ الإنسانِ إنما هي لصالحِه .

كيف يتوبُ إلى اللهِ إنْ لم يكن هلوعاً ؟ كيف يعودُ إليه ؟ وكيف يصطلحُ مع اللهِ ؟ كيف يؤدِّبه الله عز وجل ؟ وكيف يسوقُه إلى بابِه ، وبابِ طاعته ؟ كيف يحملُه على التوبةِ إنْ لم يكن هلوعاً ؟

لقد ثبّت الله عز وجل مليارات الأشياءِ في الحياةِ ، فالقوانينُ كلُّها ثابتةٌ ، قوانينُ المعادنِ وخصائصُها ، وخصائصُ البذورِ ، حركةُ الكواكبِ ثابتةٌ ، بل إنّ هذه الساعةَ المشهورة ، ساعة (بيغ بن) ما الذي يضبطها ؟ حركةُ نجمٍ! فالله سبحانه وتعالى ثبّت أشياءَ لا تعد ولا تحصى ، لكنه حرّك الصحةَ والرزقَ ، الرزقُ ليس ثابتاً ، قد تأتي أمطارٌ غزيرةٌ ، وأحياناً تأتي نسبٌ قليلةٌ جداً ، فالرزقُ متبدّلٌ ، والصحّةُ متبدّلةٌ ، ولحكمةٍ أرادها اللهُ عز وجل فإنّ تغيُّرَ الصحةِ

والرزقِ يعدُّ أحدَ الوسائلِ الفعّالةِ في تربيةِ الإنسانِ ، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ .

هذا الذي اتّصلَ بالله عز وجل نجا من هذا الضعفِ الخُلقيّ .

شيءٌ آخرُ ، هو أنّ خصائصَ النفسِ حياديّةٌ ، الإنسانُ يحبّ أنْ يتفوّقَ ، فإذا استغلّ هذه الخصيصةَ ليتنافسَ مع أخيه الإنسانِ في عملِ الآخرةِ يرقى ، وإذا استغلّ هذه الخصيصةَ ليتنافسَ مع أخيه الإنسانِ على حطامِ الدنيا كان الشقاءُ .

الخصيصةُ الثانيةُ : الإنسانُ مَنُوعٌ :

إنّ الإنسانَ حريصٌ على ما في يديه ، ننطلقُ من هنا إلى فكرةٍ دقيقةٍ ، هي أن الطبعَ يتناقضُ مع التكليفِ ، وهذا التناقضُ هو ثمنُ الجنةِ .

إنّ طبعَ الإنسانِ يدعوه لأخذِ المالِ ، والتكليفُ يأمرُه أن ينفقَ المالَ ، طبعُ الإنسانِ يقتضي أن يملأَ عينيه من محاسن النساءِ دونَ قيدٍ أو شرطٍ ، والتكليفُ يقتضي منه أنْ يغضّ البصرَ عمّن لا تحلُّ له ، طبعُ الإنسانِ يقتضي أن ينامَ وقت صلاةِ الفجرِ ، والتكليفُ يأمرُه أن يستيقظَ ، طبعُ الإنسانِ يقتضي أن يتحدّثَ في فضائحِ الآخرين ، ويمتّعَ الحاضرين ، لكن التكليفَ يقتضي أن يصمتَ ، فلذلك من تناقضِ الطبعِ مع التكليفِ يكون ثمنُ الجنّةِ .

الخصيصةُ الثالثةُ : الإنسانُ عَجولُ :

من خصائصِ النفسِ البشريّةِ خصيصةٌ وردتْ في قولِه تعالى : ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء : ١١] .

يصفُ اللهُ عز وجل في سورةِ البقرةِ المؤمنين بصفةِ تَلفتُ النظرَ ، قال تعالى : ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة : ١-٣] .

هناك شهودٌ ، وهناك غيبٌ ، عالَم الشهادةِ ، وعالَمُ الغيبِ ، في عالَمِ الشهادةِ الشهواتُ مستعرةٌ ، والفتنُ ثائرةٌ ، والدنيا خضرةٌ نضرةٌ ، أما عالَم الغيبِ ، عالَمُ ما بعد الموتِ فهناك جنةٌ يدوم نعيمُها ، ونارٌ لا ينفدُ عذابُها ، لكنّ الآخرةَ خبرٌ ، والدنيا محسوسةٌ .

أمامك بيتٌ جميلٌ ، ومركبةٌ فارهةٌ ، وطعامٌ طيّبٌ ، وامرأةٌ جميلةٌ ، هذه كلّها محسوسةٌ أمامك ، إلاّ أنّ الجنةَ والنارَ خبران في القرآنِ ، وفي الكتبِ السماويةِ الأخرى .

فلو أن إنساناً يركبُ دراجةً ، ووصلَ إلى طريقين ؛ طريقٍ هابطٍ ، وطريقٍ صاعدٍ ، الطريقُ الهابطُ معبَّدٌ تحفُّه الأشجارُ والأزهارُ ، وراكبُ الدارجةِ يرتاحُ في الطريقِ الهابطِ قطعاً .

كلُّ معطياتِ البيئةِ والواقعيةِ وخصائصِه الجسميّةِ تدعوه لأنْ يسلكَ الطريقَ الهابطَ ، وكلُّ معطياتِ البيئةِ ، وكلُّ خصائصِه

الجسميّةِ ، وكلُّ رغباته تصرِفُه عن الطريقِ الصاعدِ ، لأنّ فيه حُفراً ، وأكماتٍ ، وغباراً ، وجهداً عالياً جداً ، فالإنسانُ إذا تعاملَ مع الواقعِ فقط ، ومع خصائصِ جسمِه فقط ، ومع معطياتِ البيئةِ فقط فلابد من أنْ يسلكَ الطريقَ الهابطَ ، لكنْ لو كُتِبَ على لوحةٍ عند مفترقِ الطريقين : « هذا الطريقُ الهابطُ ينتهي بحفرةٍ مالها من قرارٍ ، فيها وحوشٌ كاسرةٌ ، وهذا الطريقُ الصاعدُ ينتهي بقصرٍ منيفٍ هو لمَن دخلَه » ، ألا ينبغي أنْ يتّخذَ راكبُ الدراجةِ قراراً معاكساً ؟

الحقيقةُ أنّ هناك واقعاً محسوساً ، وشهواتٍ مستعرةً ، منها دنيا خضرةٌ نضرةٌ ، وامرأةٌ جميلةٌ ، وبيتٌ جميلٌ ، ومنصبٌ رفيعٌ ، وأشياءُ كثيرةٌ ، لكنْ حينما تقرأُ البيانَ الإلهيَّ لابد مِن أن تتّخذَ قراراً معاكساً ، وهذه هي القصّةُ كلُّها ، هناك دنيا محدودةٌ ، وآخرةٌ لا تنتهي ، ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ [الضحى : ٤ـ٥] ، وقال : ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان : ٢٧] .

آياتٌ كثيرةٌ تبيِّن أن الحقيقةَ هي الآخرةُ ، وأن السعادةَ الحقيقية هي الآخرة ، وأن أكبرَ خسارةٍ يخسرها الإنسانُ حينما يخسر الآخرةَ ، ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الشورى : ٤٥] .

فالدنيا محسوسةٌ ، والآخرة خبرٌ ، لأنّ الإنسانَ فُطِرَ على أنه عجولٌ يريدُ الأشياءَ المحسوسةَ التي أمامه ، يريدُ ما هو قريبٌ منه ،

وينصرفُ عن الشيءِ البعيدِ ، لو أنه اختارَ الأهدافَ البعيدةَ لاختارَ الآخرةَ ، ورضوانَ اللهِ عز وجل .

ما معنى أنّ الإنسانَ مخيّرٌ ؟ لو أنّ الإنسانَ لمجرّدِ أن يعصيَ اللهَ يعاقبُه الله لم يكن مخيَّراً ، يمكنُ أنْ يعصيَه إلى أمدٍ طويلٍ ، ولا يحدثُ شيءٌ! جسمُه في أتمِّ صحّةٍ ، قلبُه ينبضُ نبضاً طبيعياً ، وضغطُه مناسبٌ ، ويمكن أنْ يطيعَه إلى أمدٍ بعيدٍ ولا يرى شيئاً استثنائياً ، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] .

الدنيا حولَ المؤمنِ محسوسةٌ ، ترقصُ خضرةً نضرةً محبَّبةً ، تتناغمُ مع شهواتِه ونزعاتِه وخصائصِ جسمِه ، والآخرةُ خبرٌ في الكتبِ السماويةِ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ »[1] .

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : « خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْمَسْجِدِ وَهُوَ يَقُولُ بِيَدِهِ هَكَذَا ـ فَأَوْمَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ بِيَدِهِ إِلَى الأَرْضِ ـ مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِراً أَوْ وَضَعَ لَهُ وَقَاهُ اللهُ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ ، أَلاَ إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ

(١) مسلم (٢٨٢٢) ، الترمذي (٢٥٥٩) ، وأحمد (٧٥٢١) من حديث أبي هريرة .

بِرَبْوَةٍ ، ثَلاَثاً ، أَلاَ إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ »[١] .

وفي المقابلِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « قَالَ اللهُ أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »[٢] .

خُلِقَ الإنسانُ عجولاً ، وهي نقطةُ ضَعفٍ فيه .

إذا عاشَ الإنسانُ الماضيَ فقط ، وأهملَ حاضرَه فهو غبيٌّ ، وإذا عاشَ حاضرَه كانت حياتُه ردودَ أفعالٍ متأخرةً ، لكنّ الموفَّقَ يعيشُ المستقبلَ ، وأكبرُ حدثٍ في المستقبلِ مغادرةُ الدنيا ، ماذا بعدَ الدنيا ؟

الخصيصةُ الرابعةُ في الإنسانِ الضعفُ :

إنّ اللهَ خَلَقه ضعيفاً ، قال تعالى : ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٢٨] .

لو أنّ الله خَلَقَ الإنسانَ قوياً لاستغنى بقوّتِه فشقيَ باستغنائِه ، ولكنْ لأنّ الإنسانَ خُلِقَ ضعيفاً فإنه يفتقرُ في ضعفِه ، فيسعدُ بافتقارِه .

فالإنسانُ حينما يستغني عن اللهِ يميلُ إلى المعصيةِ ، والدليلُ :

---

(١) مسند الإمام أحمد (٣٠١٧) .

(٢) البخاري (٣٠٧٢) ، مسلم (٢٨٢٤) ، الترمذي (٣١٩٧) .

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦ـ٧] .

والإنسانُ يتوهّمُ أنه مستغنٍ عن اللهِ ، لكنه في قبْضتِه ، والحقيقةُ أنّ في القرآنِ ملمحاً رائعاً ، هو أنّ كلمة (العبد) تُجْمَعُ على عبيدٍ ، وعلى عبادٍ ، والفرقُ بينهما دقيقٌ ، عبدُ القهرِ يُجمَعُ على عبيدٍ ، ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] ، وعبدُ الشكرِ يُجمَع على عبادٍ ، ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر : ٤٢] ، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

فالإنسانُ عبدٌ شاء أم أبى ، لكنه عبدُ القهرِ ، شريانهُ التاجيُّ وحركته بيد الله ، في ثانية واحدة يفقد حركته ونطقه ، وبخثرة (جلطة) لا يزيد حجمُها على رأسِ دبوسٍ تقف في أحدِ شرايين الدماغ يفقد حركته ، فالإنسان في قبضة الله ، وقد خلق ضعيفاً ليفتقر بضعفه ، فيسعد بافتقاره ، ولو خلق قوياً لاستغنى بقوته فشقي باستغنائه .

النقطة الدقيقة جداً : أن الإنسان أمامه امتحانان يمتحن بهما في اليوم عشرات المرات ، في كل مجالٍ في حرفتك ، وبيتك ، وتربية أولادك ، وكسب مالك ، وإنفاقه ، وأداء مهماتك ، إذا قلت : أنا ، معتداً بخبرتك وقوّتك ومالِك تخلى اللهُ عنك ، وإذا قلت : الله ، تولاّك بحفظِه .

هذان الامتحانان وَردَا في القرآنِ ، امتحانا بدرٍ وحُنينٍ ، ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٣] ، ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى

مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة : ٢٥] .

حينما نفهمُ أنّ أوامرَ الدينِ ضمانٌ لسلامتنا ، وليست حداً لحرّيتنا نكونُ قد وصلنا إلى الحقيقةِ .

* * *